ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وست مئة

ففيها استردَّ الملكُ الأشرف خِلاط من أخيه شهاب الدِّين غازي، وسلَّمها إلى مملوكه أيبك، وإلى الحاجب علي، ونَزَلَ غازي إلى مَيَّافارقين.

وفيها ظهر جلال الدِّين خُوارَزْم شاه في أذربيجان، واستولى عليها، فبعثَ إليه الملكُ المُعَظَّم عيسى رجلاً صوفياً من خانقاه السُّمَيْساطي يقال له الملقّ في رسالةٍ، واتَّفَقَ المُعَظَّم ومظفر الدِّين بن زين الدين صاحب إربل مع الخُوارَزْمي على الأشرف، وبعث المعظَّم ولده النَّاصر داود إلى ابن زين الدِّين رهينةً، وعَبَرَ الفرات عند الحديثة، ومضى إلى إربل.

وفيها استولى بدرُ الدِّين لؤلؤ على المَوْصِل، وأظهر أنَّ محمودَ بنَ القاهر قد مات، وكان قد أمر بخنقه كما سبق ذكره[1].

وفيها بنى الملكُ الكاملُ دارَ الحديث التي بين القَصْرين بالقاهرة، وجعلها بيد الشيخ الحافظ أبي الخَطَّاب ابن دِحْية، وقد اجتمعتُ به فيها في سنة ثمانٍ وعشرين كما سنذكره[2].

وفيها قَدِمَ الملكُ المسعود أقسيس من اليمن على أبيه الكامل بالقاهرة، طامعاً في أخذ الشَّام من عَمِّه المعظَّم، وكان معه من الهدايا شيءٌ عظيم؛ من جُمْلة ذلك ثلاثة من الفيلة، أحدهما كبير، ويدعى بالملك، وعليه مِحَفَّة بدرابزين يقعد فيها عشرة أنفس، وفيَّالُهُ راكبٌ على رقبته، وبيده كُلَّاب حديدٌ يضربه به كيفما أراد. وخَرَجَ الكامل للقاء ولده، فلمَّا قَرُبَتِ الفيلةُ من الكامل أَمَرَه سُوَّاسُها، فوضعَتْ رؤوسها على الأرض بين يدي الكامل خدمةً له، وكان في الهدية مئتا خادم، وأحمال عود، ونَدٌّ ومِسْكٌ وعَنْبر، وتُحَف اليمن.

---

(١) انظر ص٣١٠ من هذا الجزء.

(٢) سها أبو شامة عن ذكر اجتماعه به في حوادث سنة (٦٢٨هـ)، وذكر إجازته منه في سنة وفاته، انظر ص٣٥ من الجزء الثاني.

وفيها جَرَتْ بالعراق واقعةٌ عجيبة؛ ببغداد قريةٌ يقال لها بَعْقُوبا، فيها نخلٌ كثير، وليها ناظرٌ متشيِّع، وكان بها رجلٌ من أهلها له نخلٌ، فصادره النَّاظر، وأخذ منه ألفي نخلة، فجعل يَسُبُّ النَّاظِرَ، ويدعو عليه، وبلغ النَّاظر، فأحضره، وأمر بضربه، فقال له: بالله عليك، أنصفني. فقال: قُلْ. قال: أنتم تَسُبُّون أبا بكر رضي الله عنه، وتقولون أخذ فدَك من فاطمة، وإنما في فَدَك نُخيلاتٌ يسيرة. تأخذ أنت مني ألفي نخلة وأسكت؟! فضحك الناظر، وَرَدَّ عليه نخله.

وفيها حَجَّ بالنَّاس من العراق ابنُ أبي فراس، ومن الشَّام شجاع الدِّين علي بن السَّلار.

وفيها حَجَجْتُ من الشَّام مع والدي ـ رحمه الله ـ على طريق تبوك والعُلا، وهي أوَّل السنين الأربع المتصلة التي وُجِدَ الحجُّ فيها هنيئاً مريئاً من رُخْص الأسعار، والأمن في الطَّريق الشَّامية، وبالحَرَمين: أما في المدينة فبسبب أنَّ أميرها كان من أتباع صاحبِ الشَّام الملك المُعَظَّم عيسى، فكان يدير الحَرَسَ على الحاجِّ الشَّامي ليلاً، وأما بمكة فبسبب أنها صارت في المملكة الكامليَّة المسعودية، فانقمع بها المفسد، وسَهُلَ على الحاجِّ أمرُ دخول الكعبة، فلم يزل بابُها مفتوحاً ليلاً نهاراً مُدَّة مُقَام الحاجِّ فيها؛ وكان الكامل قد أرضى بني شيبة سَدَنَةَ الكعبة بمالٍ أطلقه لهم، عِوَضاً عما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن
١٤٣ أرادوا، وكان النَّاس ينالون من ذلك شِدَّة، ويزدحمون عند فَتْحِ الباب، ويتسلَّقُ بعضُهم على رقاب بعض، لأنَّ الباب مرتفعٌ عن الأرض بنحو قامةِ رجلٍ، فيقعُ بعضُهم على بعضٍ، فيموت بعض، وينكسر بعض، ويُشَجُّ بعض، فزال ذلك عن النَّاس تلك السنة وما بعدها مُدَّة بقاء مكة في المملكة الكاملية، وكان قد بلغني صعوبةُ ذلك، وكنت حاملاً هَمَّه، فلمَّا دَخَلْتُ من باب بني شيبة، ووقَعَ نظري على البيت ـ شَرَّفه الله تعالى ـ إذ البابُ مفتوحٌ، والسُّلَّم منصوب، والنَّاس طالعون إليه ونازلون من غير ازدحام، فمن فَرَحي بذلك وخوفي من أنه لا يدوم

عجَّلتُ في طواف القُدوم، ودخلتُ البيت ـ عظَّمه الله تعالى ـ وقضيتُ منه وَطَري اللائق بذلك الوقت، وعندي من الشوق المُبَرِّح ما كفى، ثم كرَّرْتُ الدُّخول إليه ليلاً ونهاراً، فكنتُ أصادف فيه نحو العشرة وما دونها.

ومن أعجبِ ما سمعتُ من بعض الحُجَّاج أنَّه قال: دَخَلْتُهُ ليلةً، فوجدت فيه امرأتين قاعدتين تتحدَّثان كأنَّهما في بيت لهما، قد أمِنَتَا ممن يزعجهما عن ذلك؛ لا مِنْ سادنٍ ولا من زحمةٍ.

واجتمعتُ في هذه السنة بمكة بالشيخ الحُجَّة أبي طالب عبد المحسن بن أبي العميد بن خالد بن عبد الغفار الخَفِيفي، الأبْهري، وسمعتُ عليه وعلى غيره بالمسجد الحرام، وكان يقدمُ كلَّ عامٍ من بغداد على بعض سُبلانات الخليفة، ثم بلغني أنه تولَّى إمامة المقام بمكة، وتوفي بها، رحمه الله[1].

واجتمعتُ بها أيضاً بالشيخ المقرئ عثمان بن أحمد بن بَذَّال الإرْبلي الحنبلي، وأنشدني بالمسجد الحرام:

أيا نائماً في ظلامِ الدُّجَى ... تَيَقَّظْ فَصُبْحُ الدُّجى قد أضَا
أتاكَ المشيبُ ولوعاتُهُ ... وولَّى شبابُكَ ثُمَّ انقضى
فلو كُنْتَ تَذْكُرُ ما قد جَنَيْتَ ... لَضَاقَ عليكَ اتِّساعُ الفَضَا

ونظمتُ في طريقي في تلك السفرة قصيدةً ميميةً ذكرتُ فيها المنازل من دمشق إلى عَرَفات، ووصفتُ بها ما أمكن من أماكن الزِّيارات، أوَّلها:

---

(١) توفي سنة (٦٢٤ هـ)، انظر ترجمته في التكملة للمنذري: ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، تاريخ الإسلام (ت ٢٥٣، وفيات سنة ٦٢٤ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠، العبر للذهبي: ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، المختصر المحتاج إليه: ٣/ ٨٨ ـ ٨٩، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٣١٤، العقد الثمين: ٥/ ٤٩٣ ـ ٤٩٥، شذرات الذهب: ٥/ ١١٥.

وقد تحرف الخَفِيفي إلى الحنفي، فظنه القرشي حنفي المذهب، فترجم له في «الجواهر المضية»: ٢/ ٤٦٦، وتصحف عليه كذلك سنة وفاته، فقال: سنة أربع وست مئة!

مازلتُ أشتاقُ حَجَّ البيتِ والحَرَمِ وأنْ أَزُورَ رسولَ اللـه ذا الكَرَمِ

وهي طويلة، أقول فيها تعبيراً عن فَتْحِ باب الكعبة للحجيج مطلقاً:

وأسرعوا نحوَ ذاكَ البيتِ حاسِرَةً رؤوسُهُمْ بين مِطْوَافٍ ومُسْتَلِمِ

والبابُ قد أطلقوه للحجيجِ فلم يَرَوْا بِهِ مانعاً طُولَ مُقَامِهِمِ

وفيها توفي ببغداد أحمد بن محمد بن علي، القادسي الضَّرير الحنبلي[1]؛ والد صاحب «الذيل على تاريخ أبي الفَرَج بن الجوزي».

قال أبو المظفر: كان حنبلياً خَشِناً، طَلَبَ الخليفةُ المستضيء مَنْ يصلِّي به التراويح في رمضان، فأحضروا القادسي، وقالوا: أيش مذهبك؟ قال: حنبلي. قالوا: ما يمكن أن يصلي بدار الخلافة حنبلي. فقال القادسي: أنا حنبلي، وما أريد أن أصلي بكم. وسمعه الخليفة، فصاح: صَلِّ على مذهبك[2].

قال: وكان ملازماً لمجالس جدِّي، ويزهزه[3] كثيراً، ويستحسنُ الكلامَ، وكلما ذَكَرَ جدِّي شيئاً يصيح: والله إن ذا مليح. فبعثَ إليه جدِّي يستقرضُ منه
١٤٤ عشرةَ دنانير، فاعتذر، وقال: ما هي عندي. وصار يحضر المجالس ولا يزهزه،

(١) له ترجمة في «معجم البلدان»: ٤/ ٢٩٣، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢١ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٣٠ ـ ١٣١، تاريخ الإسلام (ت ٢، وفيات سنة ٦٢١ هـ)، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢١ هـ)، توضيح المشتبه: ٧/ ١١، شذرات الذهب: ٥/ ٩٤.
وابنه محمد، كان له اعتناء بالتواريخ، وصنف كتابين: «ذيل المنتظم» وصل فيه إلى سنة (٦١٦هـ) ـ وقد استفاد منه أبو شامة في «كتاب الروضتين» ـ والكتاب الآخر «أخبار الوزراء»، وكلا الكتابين لم يصل إلينا، وتوفي سنة (٦٣٢ هـ) ببغداد.
انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣/ ١٣١، و«وفيات الأعيان»: ١/ ٣٢٩، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ١١٧.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢١ هـ).

(٣) كلمة عامية بمعنى: يشرق وجهه وتنبسط أساريره استحساناً لما يسمع، وهي مازالت دارجة عندنا في الشام، وقد تكون معربة عن زِهْ، وهي كلمة فارسية تدل على شدة الاستحسان. انظر «معجم عطية» ص ٧٤، و«شفاء الغليل» ص١٤١ ـ ١٤٢ . .

فسمعتُ جَدِّي يقول في داره: هذا القادسي ما يقرضنا شيئاً، ولا يقول: والله إن ذا مليح[١].

وكانت وفاته في شوَّال، ودُفِنَ بباب حَرْب.

وفيها توفي بدمشق الشيخ عبد الرحمن بن[٢] اليمني في المحرَّم، ودفن بمقابر الصُّوفية، وقد سَبَقَ ذِكْرُنا له في سنة عشرين متابعةً لأبي المظفر سِبْط ابن الجوزي، وإنما كانت وفاتُهُ في سنة إحدى وعشرين، رحمه الله[٣].

ثم دخلتْ سنةُ اثنتين وعشرين وست مئة

ففيها في ربيع الأول وَصَلَ خوارزم شاه جلالُ الدِّين إلى دقوقا، ففتحها عَنْوَةً، وأوقعَ السَّيفَ في أهلها، ونَهَبَ أموالهم، وسبى حريمهم، وهَتَكَ نساءهم، وأحرقَ البلد، وهَدَمَ سوره، وكانوا قد عَصَوْا عليه، وسَبُّوه من الأسوار، وبالغوا في شَتْمه. وعَزَمَ على قَصْد بغداد، فانزعجَ الخليفةُ، وأخرج المال، وفرَّق في العساكر ألفَ ألفِ دينار، ونَصَبَ المجانيق على الأسوار، وفرَّق السِّلاح، وفتح الأهراء.

قال أبو المظفر: وحكى لي المعظَّم عيسى ـ رحمه الله ـ قال: كتب إليَّ يقول: تحضر أنت ومن عاهدني، واتفق معي حتى نقصد الخليفة، فإنَّه كان السبب في هلاك أبي، ومجيء الكُفَّار إلى البلاد، ووجدنا كُتُبَه إلى الخطا، وتواقيعه لهم بالبلاد والخيل والخِلَع. قال المعظم: فكتبتُ إليه: أنا معك على كلِّ أحدٍ إلا الخليفة، فإنه إمامُ المسلمين. قال: وبينا هو على قَصْدِ بغداد، وكان قد جَهَّزَ جيشاً إلى الكُرْج إلى تفليس، فكتبوا إليه: أدركنا فما لنا بالكُرْج طاقة،

(١) هذا الخبر مما استفدناه من أبي شامة مما نقله عن «المرآة»، وقد حذفه مختصره.

(٢) بيض أبو شامة لاسم أبيه، ولم يسمِّه.

(٣) انظر ص ٣٥٩ من هذا الجزء.